﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾ [الفرقان: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التقابلُ بين الأضداد يُجلّي المعانيَ، ويُزيلُ الغموض

بعد أنِ افتُتحتِ السّورة الكريمةُ بالثناء على مُنزِّل الفرقان على رسولِه سيِّد الأنام ﷺ، وذُكِرت نعوتُه ذاتُ الجلال والإكرام، بأنَّه الواحد الأحد، مالكُ المُلك، وخالقُ كلِّ شيء، الذي لم يلِدْ، ولم يَتَّخِذْ شريكًا، ناسب أنْ يعطفَ على ذلك حالَ المشركين من اتِّخاذ الآلهة، التي هي على الضِّدِّ من صفات الله تعالى، فهي مخلوقةٌ لا خالقة، مملوكةٌ غير مالكة، لا تملكُ لنفسها ولا لغيرها ضرًّا ولا نفعًا، وفائدةُ هذه المناسبة بيانُ التقابل الضدّيِّ، بينَ الإله الحقِّ، وما اتَّخذه المشركون من الآلهة الباطلة، فتتحرَّكُ الأذهان لمعرفة طريق النَّجاة، وتركِ طريق الأوهام.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دُونِهِۦٓ﴾: (دون) أصلٌ يدلُّ على المداناةِ والمقاربة، يُقالُ: هذا دونَ ذاك، أي: هو أقربُ منه، ولا يشتقُّ منه فعلٌ[1]، ويقالُ للقاصر عن الشَّيء: دونٌ، قال بعضُهم: هو مقلوبٌ منَ الدُّنوِّ، والأدونُ: الدَّنيء، وقولُه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ﴾ [آل عمران: 118]، أي: ممَّن لم تبلُغْ منزلتُه منزلتَكم في الدّيانة، وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 116]، أي: غيرِ اللهِ[2]، والمراد: أنَّ المشركينَ عبدوا غيرَ الله تعالى آلهةً ليس بينَها وبينَه سبحانَه أيَّةُ مُقاربة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دون).
(2) الراغب، المفردات: (دون).

2) ﴿نُشُورًا﴾: (نشر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فتْحِ شيء وتَشَعُّبِه، ومنه: نَشَرْتُ الكِتابَ خِلاف طويتُهُ، ونَشَر اللّه الموتَى، فنَشَروا، وأنْشَرَ اللّه الموتَى أيضًا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: 22][1]، ومن النَّشْر: نَشَرَ الثوبَ، والصَّحيفَةَ، والسَّحابَ، والنِّعْمَةَ، والحَديثَ: بَسَطَها، ونشْرُ الميِّت مستعارٌ من نَشْر الثَّوب[2]، فإنَّ الميِّتَ يكونُ مَطويًّا في التُّراب، فينشرُهُ اللّه حيًّا كما كانَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يتَّخذ آلهةً مخلوقةً إلا مَنِ اتَّصف بضَعْف العقل وهَوان النَّفس

تبيِّن الآيةُ حالَ المشركين الَّذين اتَّخذوا من دون اللّه تعالى آلهةً عاجزةً مخلوقةً مملوكةً، وتخلو من أيَّة مَيْزَةٍ تجعلُها جديرةً بالألوهيَّة، حقيقةً بالعبادة، فهي موصوفةٌ بستِّ صفات، تُخلَقُ ولا تَخْلُقُ، ولا تدفعُ ضرًّا عن نفسها، ولا تجلبُ نفعًا لنفسِها ولا لغيرها، كما أنَّها لا تستطيع إماتةَ أحدٍ ولا إعادتَهُ للحياة، فإذا كانتِ الآلهةُ متَّصفةً بإحدى هذه الصِّفات؛ بطلَ نعتُها بالآلهة، فكيف إذا اجتمعَتْ فيها أوصافُ الضَّعف والعجز والهوان؟ فلا يعبدُها إلّا مَنِ ارتضاها لنفسه من أهلِ الضَّعف والهوان.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها البيانيَّة:

مَنِ اعترفَ بخالقِ الأكوانِ؛ كيف لهُ أنْ يتَّخذَ آلهةً مِنَ الأوهام؟

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ استئنافيَّةٌ، جيءَ بجملتِها للتعجيبِ من أمر الكافرين، والتشنيعِ بفعلهم؛ لأنَّهم قابلوا نعمةَ إنزال الفرقان وغيرِها من نِعَم اللّه تعالى بالجحود والطُّغيان، وأشركوا بمَن له صفاتُ الكمال والجلال آلهةً صفاتُها على النَّقيض من صفاته، والمعنى: إنَّ ممّا يثير العجبَ والاندهاش أنْ يتَّخذَ الكافرون

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).
(2) الراغب، المفردات: (نشر).

آلهةً غير اللّهِ، الذي نزَّل الفرقانَ على عبده، والَّذي لم يتَّخذ ولدًا ولا شريكًا، وخلقَ كلَّ شيءٍ على أحسنِ ما يكون، وله من الفضائل والنِّعَم ما لا يُحصى، ولا يُعدُّ، وتحتملُ أنْ تكون (الواو) عاطفةً على جملة: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: 2]، وما تلاها ممّا هو استدلالٌ على انفراده تعالى بالإلهيَّة؛ استطرادًا لبيان أهلِ الضَّلالة، وذكر في السّابقة قولُهُ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الفرقان: 2] الشاملُ لما اتَّخذوه من الآلهة، فكانَ ما تقدَّمَ مُهيِّئًا للتَّعجيب من اتِّخاذ المشركين آلهةً دون ذلك الإلهِ المنعوت بصفات الكمال والجلال[1].

دلالةُ استعمالِ مفردة: (اتَّخَذوا) مادَّةً وصيغةً:

الـكـافـرون مُـصِـرّون على الـشِّـركِ بالله وجُحودِ نِعَمِهِ

استعملَ النَّظمُ الحكيمُ الفعلَ: (اتَّخَذوا) الدّالَّ بمادَّتِه على القوَّة في "حَوْز الشَّيء وجَبْيِه وجَمعِه"[2]، فدلَّت مفردةُ (الاتِّخاذ) على قوَّة المتَّخِذ وعنادِه فيما اتَّخذَه، وتمسُّكِه به تمسُّكًا شديدًا لا يُفلتُه، وبصيغتِه الماضيةِ على تحقُّق الشِّرك والقطعِ بحصوله؛ للإشارة إلى أنَّهم فعلوا ذلك بإصرارٍ عجيبٍ، وأقدموا عليه إقدامًا يدلُّ على ظُلمهم واجترائهم على ربِّهم، وجحودِهم لما أنعم به عليهم من نِعَمٍ لا حصرَ لها، ولا يستطيع غيرُه سبحانه أنْ يجودَ بمثلها، فيكون اختيارُ الفعلِ مُناسبًا للغرض الَّذي سيقَ له الكلامُ.

إعـادةُ الأذهـانِ إلـى الـنُّـقـطـة الأولى في عبادة الباطل

والاتِّخاذ: افتعالٌ من الأخذ[3]، ما يعني: أنَّ الاتِّخاذ فيه نوعٌ من الحرص والقوَّة، بسبب الزّيادة في البناء، ولمجيئة بصيغة (الافتعال) التي تفيد المبالغةَ في عمليَّة الأخذ والعُبوديَّة، فآثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن فعلهم وعبادتهم بـ(الاتِّخاذ)؛ لأنَّ السّياق حديثٌ عن صنيعهم قبلَ العبادة، فهم اتَّخذوا تلك الآلهة ليَعبدوها،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 319.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (أخذ) 87.

والسّياق يُخبرنا عن اتِّخاذِهم مَن لا يخلق، ولا يملك، ولا يقدر، وتركِ عبادة الخالق المالك، وفيه ملحظٌ عجيبٌ، وهو أنَّ الآياتِ تردُّ المشركين إلى نقطة البداية التي انطلقوا منها، وهي الاتِّخاذ، ليُنكر عليهم واقعَهم في عبادة تلك الآلهة، وليبيِّن أنَّ هذه الآلهة متَّخذةٌ من أفعال عابديها؛ لا أنَّها معبودةٌ لما فيها من الاستحقاق.

نكتةُ إسنادِ فعلِ الاتِّخاذِ إلى الضَّمير:

عبادةُ مخلوقاتٍ ضعيفة فعلٌ مستقبَحٌ وعملٌ مُستهجَنٌ

أُسنِدَ فعلُ الاتِّخاذ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ إلى ضمير الجمع العائدِ على المشركين - مع أنَّه لم يَسبِق ذكرُهم - للدَّلالة على أنَّ هذا الفعلَ القبيحَ لا يصدر إلّا عن معلومٍ لدى المُخاطَبين، وأنَّ صدورَهُ عنهم أمرٌ بدهيٌّ يعرفُه القاصي والدّاني، ولا يحتاجُ إلى تصريح، بالإضافةِ إلى "استهجان نسبةِ هذا الفعلِ الشَّنيع إلى فاعلٍ مُعيَّن؛ توبيخًا لهم وإرشادًا إلى مبادرة كلِّ مُنصفٍ إلى نفيِه عن نفسه"[1]، واستقباحِه لها، فإنَّ مِن شأنِ العقلاء ألّا يصدرَ عنهم مثلُ هذا الصَّنيع، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ على النَّبيه أن يستقبحَ أنْ يكون ممَّن اتَّخذ من دون اللّه آلهةً، وفي ذكر ضمير الجماعةِ ما يدلُّ على أنَّ الشِّركَ ملَّةٌ واحدةٌ، لا فرقَ بين مَن عبد نبيًّا مُرسَلًا أوْ مَلَكًا مُقرَّبًا، أو اتخذ حجارة وأوثانًا، ولا يبعُدُ أنْ يكونَ مرجعُه إلى المفهوم من لفظ (شريك)[2]؛ إذ يُفهمُ منه أنَّ مَنِ اتَّخذ من دون اللّه آلهة أنَّه مُشرك، وجمعُه مشركون.

نوعُ حرف ﴿مِن﴾ ودلالته:

تحديدُ جهةِ الاتِّخاذ ملائمٌ للتعجيب المفهوم من السّياق

أفاد حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ الابتداء، أي: ابتداءً ممّا هو دونَ اللّه تعالى رتبةً ومكانةً واستحقاقًا، فإنَّ المشركين اتَّخذوا الآلهةَ ليعبدوها ممّا هي دون اللّه تعالى، وأفاد الابتداءُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 294.
(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 18/ 320.

المكانيُّ مجازًا تحديدَ جهة الاتِّخاذ لتأشير أنَّ عملهم عجيبٌ؛ إذ ينطلقُ ممَّن هو دونَ الله تعالى في الرُّتبة والمقام والاستحقاق.

نكتةُ اختيارِ لفظ ﴿دُونِهِۦٓ﴾ مضافًا إلى الضَّمير:

نـظـرُ المُـشـركِ قـاصـرٌ، وفـكـرُهُ عـن بلوغ الحقِّ حاسِرٌ

دلَّ لفظُ ﴿دُونِهِۦٓ﴾ على أنَّ كلَّ معبودٍ هو دونَ المعبودِ الحقِّ سبحانه، وأنَّ نظر المشركين إنَّما كان لما هو دون الله تعالى، فنظرُهم قاصرٌ، وفكرُهم حاسرٌ، وقد أُضيف إلى ضمير الغَيبة العائدِ على الله تعالى، للتَّأكيد على أنَّهم مخلوقاتٌ دونَ علوِّ الله تعالى في كبريائه وخالقيَّته ورازقيَّته، فمَن أراد الرِّفعةَ؛ فليبتعد عن طريق الدّون، وليتَّجه صوبَ الحقِّ ﷻ؛ لينالَ الرِّفعةَ والجلال، ولم يخترِ النَّظمُ الكريم لفظَ (غير)، فلم يقلْ: (واتخذوا آلهة غير الله)؛ لأنَّ المغايرة لا تفيدُ ما أفادته (دون) من الانحطاط والضَّعف الدالِّ على غلطِهم وسوءِ اختيارهم، كما أفاد الظّرفُ فائدةً استدلاليَّةً تحقِّقُ التعجيب من حالهم، وهي مكمنُ غلطهم ومنشأ ضلالتهم؛ إذ صرفوا نظرَهم عند التقديس إلى مَن ليس مُستحقًّا للعبادة؛ لأنَّ كلَّ معبود متوهَّم هو مخلوقٌ وضعيفٌ وعاجز، فهو دونَ الله في الرُّتبة والاستحقاق والتقديس.

نكتةُ تقديم ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على المفعول:

متَّخذو الآلهةِ نظروا إلى الدّون فـوقـعـوا في الفتون

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على المفعول: ﴿ءَالِهَةً﴾؛ للتَّنبيه على مكانة الآلهة التي اتَّخذها المشركون، فهي في منزلة دونٍ، وفي مَقعَدٍ سُفلٍ، كما أنَّ فيه تشويقًا لمعرفة ما هو الذي اتَّخذه المشركون (من دون الله تعالى)، وفائدةُ التَّقديم بيانُ أنَّ ما اتُّخِذ آلهةً هو في الدرجة الأولى اتُّخِذ من دون الله تعالى، وما كان كذلك، فيلحقه الذَّمُّ، ويلحقُ مَن اتَّخذه العارُ، كما أفاد التقديمُ الاهتمامَ بمكانة المتَّخذ دونَ المتَّخِذ نفسه؛ لأنَّه محلُّ التَّعجيب والاستغراب؛ إذ ينصرفُ هؤلاء الضّالّونَ عن عبادة الله تعالى ذي المرتبة العظيمةِ

إلى اتِّخاذ مَن دونَهُ في المقام، فليس التَّعجيب من الآلهة المتَّخذةِ نفسِها، بل من جهة المتَّخذِ ومقامهِ الدونيِّ.

نكتةُ جمع الآلهةِ وتنكيرها:

جُمعتِ الآلهةُ ﴿ءَالِهَةً﴾؛ لإفادة كثرتها، وهذه الكثرة تدلُّ على بُطلانها، وهوانِ عابديها، وإفادةِ أنَّ المشركين تنوَّعت صورُ آلهتهم: فمِنهم مَن عبدَ وثنًا، ومنهم مَنِ اختار نبيًّا مُرسَلًا، ومنهم مَن أشرك باللّه ملَكًا مقرَّبًا، وتعدُّدُ المتَّخذ من دون اللّه دليلُ التحيُّر في التعيين، وإشارةٌ إلى عدم امتلاكهم الدَّليلَ القاطع على صحَّة معبوداتهم من دونِ اللّه تعالى، ونُكِّرت الآلهة لبيانِ حقارتها وسُخفِ عقلِ مُتّخذيها، ممّا يؤكِّد عجزَ قدرتها، وبطلانَ عبادتها؛ لأنَّ كثرتها تؤدّي - حتمًا - إلى التَّنازع والفشل، المُفضي إلى الفساد والعطَب، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]، وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: 91].

كثرةُ الآلهةِ دليلُ هـوانِ عابديها وتنكيرُها دليلُ سخفِ متَّخذيها

دلالةُ وصف المفعول بجملةِ النَّفي:

وُصِفَ المفعولُ: ﴿ءَالِهَةً﴾ بجملة: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾؛ وذلك لاستجماع هذه الجملة معالمَ ضعفِ الآلهة وهوانِها، فهي آلهةٌ لا تخلقُ شيئًا، وهي مشتملةٌ على نفي خلْقِ شيءٍ من الأشياء مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، حقيرًا أوْ عظيمًا، مع ذكر مفردةِ (الخلق)؛ للإشعار بأنَّها مخلوقةٌ، وتوطئةٌ للتصريح بذلك، والنَّعتُ بوضعه دالٌّ على الكشف والبيان، فكانَ البيانُ كاشفًا عن صورةٍ من العجزِ الكلّيِّ تجلَّى بالنفي لفعل الخلق والإيجاد المختصِّ بالإلهِ الحقِّ.

عـجـزُ الآلـهـةِ المـزعـومـةِ دائـمٌ شاملٌ

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ العاقل:

جاء إسنادُ فعل الخلق المنفيِّ عن الآلهةِ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ﴾ إلى ضمير العاقلين؛ تهكُّمًا بالمشركين، وازدراءً بهم، حيث

تنبيهُ الغافلين إلـى حقيقةِ معبوداتِهم بالإيماءِ والإشارةِ

أقاموا آلهتَهم مقامَ العُقلاء، وأنزلوها منازلَ أهلِ الإدراك، وهي في الحقيقة لا تعقلُ، ولا تدركُ، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ المعبود يجبُ أن يكون خالقًا عالمًا، لا مخلوقًا غيرَ مُدرك، ففيه تنبيهٌ بديعٌ على سُخف العقولِ، وضَعْف الإدراك، ويحتمل أنَّ في الإسناد تغليبًا للمعبودات العاقلة على غيرها؛ إذ من جملةِ المعبودات من دون الله تعالى المسيحُ عيسى ابنُ مريم والعُزَير وغيرهما، وأشار بهذا التغليبِ إلى أنَّ العقلاءَ - الذين هم أحسن حالًا من غيرهم - مسلوبو القدرةِ على الخلق والإيجاد، فكيف بمَن كنَّ مسلوباتِ العقل أصلًا كالجمادات من الأصنام والأوثان والحيوانات؟

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿شَيْـًٔا﴾:

عـمـومُ النَّـفـي مقابل لعموم الإيجاب

جاء لفظ ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرةً في سياق النفي؛ ليدلَّ على العموم، فالآلهةُ المعبودة لا تخلق أيَّ شيءٍ مُتصوَّر في عالم الأفكار البشريَّة، وفي هذا السَّلب الكلّيِّ ما يُنبِّههم إلى أنَّ ما يعبدونه من دون الله، ويتَّخذونه إلهًا، عاجزٌ بالكليَّة عن الإيجاد والصُّنع والتكوين، الذي لا يمكن أنْ يكون الإلهُ إلهًا، وهو عاجزٌ عن فعل أيِّ شيء، بل حتى أفعالُهم التي يصنعونها مخلوقةٌ لله تعالى إيجادًا وإبداعًا، وقد نظرَ في هذا السَّلب إلى قوله في وصفِ ذاته العظيمة: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الفرقان: 2]، الدالِّ على أنَّ كلَّ المخلوقات برأها الله، وأوجدها من العدم، ومنها تلك المعبوداتُ من دونه.

فائدةُ عطف الجملةِ المثبتة على المنفيَّةِ:

التـصـريـحُ بـالـواضـحـات كـاشـفٌ عـن الـعـجـز عـن إدراك البدهيّات

جيء بجملة: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ مثبتةً معطوفةً على الجملة المنفيَّةِ بـ(الواو)، التي تفيد المشاركةَ؛ للدَّلالة على أنَّ العجزَ صفةٌ متأصِّلة في تلك الآلهة، وليس طارئًا عليها؛ لأنَّها خُلِقت عاجزةً، ونفي الخالقيَّة يُثبت المخلوقيَّة، وعليه فالجملةُ المعطوفة أفادت التوكيدَ للجملة المعطوف عليها، وفائدتُه بيان الواضحات لمن لا يفقه بطريق

الاستنباط والاستدلال، فكان التَّصريح توبيخًا لأفهام المشركين، وتقريعًا لهم، والذي يترجَّح أنَّ نفي الخالقيَّة لا يُثبت المخلوقيَّة؛ لأنَّه لا يلزمُ من نفيِ خالقيَّتِهم للأشياء أنَّهم لا يخلقونَ أنفسَهم، وأنَّهم مخلوقون من غيرهم، فقد يظنُّ ظانٌّ أنَّ الآلهةَ المزعومة عاجزةٌ عن التَّخليق لغيرها، لكنَّها تخلقُ ذاتَها ونفسَها، فجاء النفيُ احتراسًا عن هذا التوهُّم، وأثبتَ أنَّهم عاجزون عن التَّخليق بل هم مخلوقونَ كسائرِ المخلوقاتِ العاجزة، وعليه فالجملةُ المعطوفةُ أفادتِ الاحتراسَ عمّا يُتوهَّم من الجملة المعطوفِ عليها معَ التَّوكيدِ لمضمونها.

غرضُ تقديمِ المسند إليه على المسند الفعلي:

قُدِّم المسند إليه ﴿وَهُمْ﴾ في جملة: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ على الخبر الفعليِّ؛ لتقوية معنى خلقِهم وتأكيدِه، ولتنبيهِ المخاطَبين على أنَّ الذين اتَّخذتموهم معبوداتٍ من دونه مخلوقونُ له تعالى، وفي التعبير بالفعلينِ المُضارعينِ في جملتَي النفي والإثبات إشارةٌ إلى استمرار عجْزِهم عن التَّخليق، واستمرار خلق النحّاتين لهم الدالِّ على كمال عجزهم النّافي لألوهيَّتهم.

تقويةُ الحكم دالٌّ على كمال العجز والاحتياج المنافيَين للألوهيَّة

نكتةُ بناء الفعل للمفعول:

جيءَ بالمسند: ﴿يُخْلَقُونَ﴾ مبنيًّا لما لم يُسمَّ فاعله؛ لأنَّ خالقَ كلِّ شيءٍ معلومٌ، وهو اللّه ﷻ، كما نصَّت عليه الآية السّابقة، أوْ أنْ يكون المعنى: لا يقدِرون على أن يختلقوا شيئًا، وهم يُختَلَقون، حيث تختلقُهم عبدَتُهم بالنَّحت والتَّصوير[1]، ما يعني: أنَّهم عبدوا آلهةً من صُنعِ أيديهم، وهو أمرٌ يجعلُها في منزلةٍ دونَ منزلتهم، ويزيدُ صنيعَهم شناعةً وقبحًا وتعجيبًا، كما دلَّ البناء للمجهول على أنَّ معبوداتِهم من الجمادات يجهلونَ مَن صنعَهم، وإنْ كان الفاعلُ معلومًا بالنِّسبة للمخاطَبين، سواءٌ كان الفاعلُ هو اللّهَ تعالى أم

المشركُ يكفيه قبحًا أن يعبدَ ما صنعَ بيديه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 83.

النّاحتينَ لهم؛ لأنَّهم مسلوبو العقلِ والإرادة؛ إذ يخلقُهم الله تعالى، وهم لا يَعلمونه، ولا يَعرفونه، وفي هذا تقبيحٌ لشركهم؛ إذ تجهلُ معبوداتُهم مَن خلقَها، وصنعَها.

بلاغةُ طباقِ السَّلب:

لا عَجْزَ أبْينُ من عجز النّاحتِ لآلهتِهِ

بين فعل ﴿لَّا يَخْلُقُونَ﴾ المنفيِّ، وفعل ﴿يُخْلَقُونَ﴾ المثبَت طباقُ السَّلب الذي يدلُّ على أنَّه "لا عَجْزَ أبْينُ من عجزِ تلك الآلهة؛ لأنَّهم لا يقدرونَ على شيءٍ من أفعال الله، ولا من أفعالِ العباد، إذ لا يَفتعلونَ شيئًا، وهم يُفتعَلون؛ لأنَّ عبدتَهم يَصنعونَهم بالنَّحت والتصوير"[1]، ويُشكِّلونهم على الصّورة التي يُحبّونهم عليها، ولا يوجدُ دليلٌ على عجزهم أوضحُ من ذلك.

بلاغة فنِّ التَّرديد:

المشركون يَصنعون الآلهةَ، ويَنحتونها، ويَضعونَ لها قوانينَ الامتثال

كما أنَّ في اتِّحاد الفعل المنفيِّ والمثبَت ﴿يَخْلُقُونَ﴾ مع اختلاف إسناده بلاغةً عالية، حيث إنَّه يُحتمل (فنُّ الترديد)، فإذا جعلنا الخلقَ في الجملتين بمعنى الخلقِ من العدم، فهو من باب التماثل، وتكونُ الثانيةُ من باب التوكيد لما جاء في الأولى، وإذا جعلنا الخلقَ في الجملة الأولى بمعنى الإيجاد من العدم، وفي الجملة الثانية بمعنى التقدير، فهي محمولةٌ على فنِّ الترديد، فتكونُ الجملة الأوْلى نفَتْ عنهم ما أُثبت للخالق سبحانه، فيُفهم لزومًا أنَّهم مخلوقون، وتكونُ الجملة الثانية قد أثبتت أنَّ المشركين يقدِّرون صورَ الآلهة، ويصنعونَها، ويضعون لها قوانين الطاعة والامتثال.

مناسبةُ ترتيب الجمل المتعاطفة:

الآلهةُ المعبودةُ من دون الله أعجزُ من الحيوان

عَطفت الآية جملةَ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ "لبيان ما لم يدلَّ عليه ما سبق من مراتبِ عجزِهم وضَعْفِهم، فإنَّ بعضَ العاجزينَ عن الخلقِ رُبَّما يملكُ دفعَ الضُّرِّ وجلبَ النَّفعِ في

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 263.

الجملة كالحيوان"[1]، فجيء بها لبيان أنَّ هذه الآلهةَ أعجزُ من الحيوان، فإنَّه ربَّما يملكُ دفعَ الضُّرِّ عن نفسه، أوْ جلبَ النَّفع لها في بعض الأحيان.

فائدةُ استعمال أداة النفي (لا):

الشُّمول الزمني دليلُ الافتقار الكلي

استعمل النظمُ الكريم أداةَ النَّفي (لا) في الجمل المنفيَّة؛ ليشمل الماضي والحاضر والمستقبل، ولو قال: (لم يملكوا)؛ لاقتصرَ على الماضي فقط، والمراد شمولُ الزَّمانِ كلِّه، فكما أنَّهم لا يخلقون شيئًا على سبيل الاستمرار الكليِّ، فإنَّهم لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا كذلك.

بلاغةُ التَّعبير بمفردة ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾:

المقصودُ بالملك الاستطاعةُ القويَّةُ من باب المجاز المرسَل

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ دونَ رديفاتِها، ومعناها: لا يقدرون على دفع الضرِّ، وحقيقةُ معنى المِلك: التمكُّنُ من التصرُّف بدون معارض، ثمَّ أُطلق على استطاعة التصرُّف في الأشياء بدون عَجْزٍ، ونشأ إطلاقُ المِلك بمعنى الاستطاعة القويَّة الثابتة على سبيل المجازِ المرسَل للتلازم بين المِلك والاستطاعة، فقد تعلَّقَ فعلُ المِلك فيها بمعانٍ لا بأشياء وذوات، وذلك لا يكون إلّا على جعل المِلك بمعنى الاستطاعة القويَّة[2]، وآثر التَّعبيرَ بهذه المفردة دون (يَستطيعون)؛ لأنَّ نفيَ الامتلاك أقوى وأوسعُ وأشمل، فإنَّ نفي ملك الاستطاعةِ أقوى من نفي الاستطاعة نفسِها، فمن لم يملك ابتداءً، كيف له أن يتصرَّف انتهاءً؟ كما آثرَ النظمُ التعبيرَ بـ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ دون (ولا يضرون ولا ينفعون)؛ لأنَّ نفي ملك الضرِّ والنَّفع والتصرُّف فيهما أبلغُ من نفي نفسيهما؛ إذ لا يلزمُ من نفي الضُّرِّ والنَّفع عدمُ امتلاك القدرة على النَّفع والضرِّ؛ ولذا كان نفيُ القوَّة أبلغَ من نفيِ الفعل.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 83، إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 137.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 289.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع المنفيِّ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾؛ للدَّلالة على نفي عَجْزهم المطلق عن مِلك الضرِّ والنفع وامتدادِه مع تجدُّد الأزمان والحدثان، وبلوغِهم في ذلك مدًى لا حدودَ له، وفي هذا التعبير إشارةٌ إلى أنَّ الله ﷻ هو الذي يملكُ لهم الضرَّ والنَّفعَ باستمرار.

نفيُ ملك الضرِّ والنفع عن الآلهة إثباتٌ للمالك الحقيقيِّ لهما

نوعُ اللّام ودلالتُها:

عُدِّي فعل ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ بحرف اللّام في قوله: ﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾ لإفادة الاختصاص؛ لدفع توهُّم أنَّهم يَملكونه لها إنْ لم يَملكوه لغيرها، كما أفادت اللامُ تشخيصَ محلِّ نفيِ المِلك، وهي النَّفسُ، لإظهار مدى العجْز والضَّعف.

الآلهة المعبودة من دون الله في غاية العجز

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

قُدِّم الجارُّ والمجرور: ﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾ على المفعول به: ﴿ضَرًّا﴾؛ فلم يقل: (ولا يملكون ضرًّا لأنفسهم)؛ للتَّنبيه على أنَّ من لا يستطيع دفْعَ الضُّرِّ عن نفسه، ولا جلبَ المنفعة لها لا يستطيعُ فعلَ ذلك لغيره من باب أوْلى، ففيه إثباتُ عَجْزهم بالدليل والبرهان، وفي التعبير عنهم بلفظ (الأنفس) دون الضَّمير، فلم يقل: (ولا يملكون لهم)؛ لأنَّ النَّفس أخصُّ أحوال الإنسان، ومن عجزَ عن نفع نفسِه التي بين جنبَيه أو ضرِّها؛ فكيف يتأتَّى له نفعُ ما هو من مصالحه وأحواله وضرها؟

العاجزُ عن حمايةِ نفسِه أعجزُ عن حمايةِ غيرِه

نكتةُ تنكير ﴿ضَرًّا﴾:

نَكَّر المفعول به: ﴿ضَرًّا﴾ ليَعُمَّ كلَّ ضرٍّ يُتصوَّر، مهما كان صغيرًا في أثره أوْ كبيرًا، فإنَّ القدرة على دفعِه ممنوعةٌ، وذلك أنَّ النَّكرة في سياق النَّفي تدلُّ على العموم، فالحكمُ من عمومِ السَّلب الدالِّ على سلْبِ ملكيَّة الضرِّ بأيِّ شكلٍ من أشكاله، وذلك مُنتهى العَجْز والضَّعف.

عمومُ السَّلب دالٌّ على منتهى العجز

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»